سلسلة رجال من طين ونور

الغُلَامُ الذَّاكِرُ

أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ التُّسْتَرِيُّ



تأليفُ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ واعديل ياسين

إهداء

إلى رُوحِ وَالِدَيَّ الْكَرِيمَيْنِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَسْكَنَهُمَا فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَجَعَلَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ نَصَبٍ، وَصَبْرٍ، وَتَرْبِيَةٍ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمَا الأَوْفَرِ.

إِلَى مَنْ كَانَا بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبًا فِي الْوُجُودِ، وَسِرَاجًا مِنَ الرَّحْمَةِ يُضِيءُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ، وَدُعَاءً يَتَرَدَّدُ فِي أَعْمَاقِ الْفُؤَادِ وَإِنْ حُجِبَا عَنِ الْعِيَانِ.

أَهْدِي هَذَا الْعَمَلَ الْمُتَوَاضِعَ إِلَى رُوحَيْهِمَا الطَّاهِرَتَيْنِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ الْمَنَّانُ صَدَقَةً جَارِيَةً عَنْهُمَا، وَنُورًا يَمْتَدُّ إِلَيْهِمَا أَثَرُهُ، وَدَعْوَةً صَالِحَةً تَرْفَعُ مَقَامَهُمَا فِي عِلِّيِّينَ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

إِلَى كُلِّ قَلْبٍ يَلْتَمِسُ أَنْوَارَ الْقُرْآنِ فِي زَمَنٍ تَزَاحَمَتْ فِيهِ الظُّلُمَاتُ، إِلَى كُلِّ أُسْرَةٍ تَرُومُ حِفْظَ حِيَاضِهَا وَصِيَانَةَ خِدْرِهَا مِنْ عَوَاصِفِ الْفِتَنِ، وَإِلَى كُلِّ مُجْتَمَعٍ يَرْجُو مَنَاهِجَ الإِصْلَاحِ وَيَسْلُكُ سُبُلَ الْعِفَّةِ وَالْهِدَايَةِ.

صفحة الحقوق والوقف الرقمي

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾

اسم السلسلة :رجال من طين ونور

الإصدار :حكاية الغلام الذاكر أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري

حقوق الملكية الفكرية :متاح للجميع (مشاع إبداعي ميمم لوجه الله)

بيان النشر والتوزيع:

هذا العمل مهدى وموقوفٌ بالكامل **لوجه الله تعالى**، ابتكاراً ونشراً وتوزيعاً، ليكون زاداً معرفياً متاحاً لكل سالك وقارئ وباحث دون أي مقابل مادي أو قيود احتكارية.

يُسمح ويُستحب لكل عينٍ وقعت على هذا الكتاب أن تقوم بـ:

نسخه وإعادة نشره عبر المدونات، المواقع، أو منصات التواصل الاجتماعي.

اقتباس نصوصه وحكاياته لإنتاج محتوى مرئي (يوتيوب/ تيك توك) أو مسموع (بودكاست).

توزيعه بصيغته الرقمية (PDF / ePub)في المجموعات والمكتبات العامة.

الشرط الوحيد والأمانة العلمية لمن أخذ من هذا العمل شيئاً، أن يذكر المصدر الأصلي له حفظاً للجهد والتأصيل، وعزواً للفضل إلى أهله.

شاكرين ومقدرين لكل من ساهم في نشر هذه الأنوار التاريخية نسأل الله القبول والإخلاص في القول والعمل.

الفهرس

الفصل الأول: أنوار الطفولة وسر الكلمات الثلاث

في عام مائتين للهجرة (٢٠٠ هـ)، كانت مدينة "تُستر" تعيش أزهى أيامها كواحدة من أعظم حواضر بلاد خوزستان، وهي الأرض التي امتزجت طبيعتها بجداول الماء القريبة من أرض البصرة. في هذا المهد التاريخي، ولد الرضيع أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، لينشأ في أسرة لم تترك لنا كتب التاريخ عنها الكثير، سوى أن بركتها امتدت لقرون حتى زار رحالة الإسلام ابن بطوطة حفيدةً لسهل في نفس المدينة بعد مئات السنين.

تبدأ الحكاية الحقيقية لسهل وهو طفل صغير لم يتجاوز الثلاث سنوات من عمره. في تلك السن المبكرة، حيث يغط الأطفال في نوم عميق، كان سهل يستيقظ في هزيع الليل الأخير. لم يكن بكاؤه طلباً للبن أو رعاية، بل كان ينجذب نحو ضوء قنديل ضئيل في زاوية الغرفة، حيث يقف خاله العابد "محمد بن سوار" منتصباً في محرابه، يناجي ربه والدموع تبلل لحيته.

كان الطفل سهل يقف لساعات لكن عيناه تشخصان نحو ذلك النور الخفي المنبعث من خاله.

لفت انتباه الخال هذا الوجود الصامت للصغير ليلة بعد ليلة، فخشي عليه من السهر والإرهاق، وكان يقطع صلاته ليلتفت إليه برفق قائلاً: "يا سهل، اذهب ونم، فقد شغلت قلبي".

امتثل سهل، لكن قلبه ظل مستيقظاً. وفي نهار أحد الأيام، أراد الخال محمد بن سوار أن يضع للطفل أساساً يربطه بالسماء، فاستدعاه وقال له: "ألا تذكر الله الذي خلقك؟"

نظر الصغير بدهشة الطفولة وسأل: "كيف أذكره يا خال؟"

فقال له محمد بن سوار: "قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات، من غير أن تحرك به لسانك: **الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي**".

أخذ سهل هذه الكلمات الثلاث كأثمن كنز دنيوي. صار إذا آوى إلى فراشه، يغمض عينيه ويدع روحه تردد في صمت باطني: **❊الله معي.. الله ناظر إلي.. الله شاهدي❊**. مضت ليالٍ وهو على هذا الحال، وفجأة، شعر برعشة تسري في عروقه، ووصفها لاحقاً بقوله: "فوقع في قلبي حلاوة".

ركض الطفل إلى خاله يخبره بما يجد من أنس وفرح داخلي، فقال له الخال مستثمراً هذا الصفاء: "قلها في كل ليلة سبع مرات". ففعل سهل، وازدادت الحلاوة في سريرته. ولما مرت سنة كاملة، التفت إليه الخال واضعاً يده على كتفه بوقار وقال وصية للتاريخ: "يا سهل، احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة.. يا بني، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده لا يعصيه، فإياك والمعصية".

الفصل الثاني: رحلة البحث عن الجواب واقتصار العيش

انطبعت الكلمات الثلاث في وجدان سهل كحصن منيع ضد زلل النفس. ولما بلغ السادسة أو السابعة من عمره، كان قد حفظ القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب، وبدت عليه أمارات الزهد العجيب؛ إذ عود نفسه على صيام الدهر، وجعل طعامه الوحيد خبز الشعير الخشن طوال اثنتي عشرة سنة.

لكن العقل المتوقد لسهل لم يكن يكتفي بالعبادة الظاهرة؛ فحين بلغ الثالثة عشرة من عمره، واجهت عقله مسألة فقهية وعقائدية معقدة وعميقة. دار بين علماء "تُستر" يطلب جواباً يطفئ حيرته، فلم يجد عندهم ما يشفي غليله.

تضرع إلى أهله أن يسمحوا له بالسفر، فشد رحاله متوجهاً إلى البصرة، منارة العلم في ذلك العصر. دخل البصرة وجلس في مجالس علمائها الكبار، وطرح مسألته، لكنه قال بحسرة: "فلم يشفني ما سمعت".

لم ينكص سهل راجعاً، بل دفعه الشغف الروحي إلى الخروج نحو الثغور والرباطات، فقصد منطقة "عبادان" على سواحل الخليج، حيث التقى هناك برجل عابد معتزل يُدعى **"أبو حبيب حمزة بن عبد الله العبادي"**.

عندما طرح سهل مسألته على الشيخ العبادي، أجابه بجواب بليغ مشرق مسح عن عقله كل حيرة. شعر سهل بعظمة هذا الشيخ، فقرر المكوث عنده لمديدة، قائلاً: "فجئت عبادان.. وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بأدبه".

عاد سهل إلى تُستر بعد رحلته المعرفية، ودخل في مرحلة من التضييق على النفس ومجاهدة الطين البشري بشكل لا يكاد يصدقه عقل. فرض على نفسه نظاماً غذائياً صارماً؛ إذ كان يشتري بدرهم واحد ما يُسمى "فرقان الشعير". يأمر بطحنه وخبزه، ثم يأخذ منه كل ليلة عند السحر أوقية واحدة فقط (قضمة صغيرة جداً)، يأكلها حافية بغير ملح ولا إدام! والعجيب أن ذلك الخبز المشتري بدرهم واحد كان يكفيه

سنة كاملة.

ولم يقف عند هذا الحد؛ بل ارتقى في مدارج "الطي" (وهو الصيام المتواصل للأيام دون إفطار). فطوى ثلاث ليالٍ متواصلة، ثم عود نفسه على طي خمس ليالٍ، ثم سبع، حتى وصل به الحال إلى طي خمس وعشرين ليلة كاملة لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً! وظل على هذا الحال من الرياضة والمجاهدة عشرين سنة كاملة، يسيح في قفار الأرض، ثم يعود إلى تُستر ليقوم الليل كله مستأنساً بربه.

وخلال أسفاره وسياحته، حج إلى بيت الله الحرام وهناك التقى بقطب التصوف الكبير "ذي النون المصري" وصحبه وتأثر به.

الفصل الثالث: عقيدة التستري وسنن الورع

تحول سهل بن عبد الله التستري في القرن الثالث الهجري إلى جبل من جبال العلم والسنة، واجتمع حوله في تُستر مريدون وعلماء كبار. تميزت طريقته بدمج الشريعة بالحقيقة والالتزام الصارم بالمنقول والأثر؛ حتى وصفه الإمام الذهبي بـ "شيخ العارفين الصوفي الزاهد"، وقال عنه الهجويري: "إنه جمع بين الشريعة والحقيقة، وطريقه المجاهدة والرياضة".

كان سهل يرى أن بناء التصوف لا يصح إلا إذا تأسس على قواعد الدين المتينة، وكان يردد دائماً قانون مدرسة السهلية:

"أصولنا ستة أشياء: **التمسك بكتاب الله تعالى**، **والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ**، **وأكل الحلال**، **وكف الأذى**، **واجتناب الآثام**، **والتوبة**، **وأداء الحقوق**".

وفي وسط الفتن الكلامية والبدع التي ماج بها القرن الثالث، صاغ سهل دستوره العقائدي الواضح الذي نقله عنه الإمام اللالكائي.

وعندما سُئل: "متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟" وضع عشر خصال صارمة تلخص سلامة المنهج الباطني والظاهري:

١. أن لا يترك الجماعة والجمعة خلف كل والٍ جار أو عدل.

٢. أن لا يسب أصحاب النبي ﷺ، ويعتقد أن أفضل الناس بعد النبي هو أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

٣. أن لا يخرج على هذه الأمة بالسيف (حرمة الخروج على الحكام).

٤. أن لا يكذب بالقدر.

٥. أن لا يشك في الإيمان، ويعتقد أنه قول وعمل ونية، يزيد وينقص.

٦. أن لا يماري في الدين.

٧. أن لا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب.

٨. أن يثبت المسح على الخفين.

٩. أن يؤمن بالقرآن بأنه كلام الله غير مخلوق.

١٠. أن يؤمن بأمور الآخرة السبعة التي من جحدها فهو مبتدع؛ وهي: عذاب القبر، الحشر، الميزان، الحساب، الحوض، الشفاعة، الصراط، ورؤية الله عز وجل في الجنة (النظر إلى وجهه الكريم).

كان سهل صارماً ضد آفات اللسان التي تحرم العبد حقيقة الصفاء، وترك حكمة خالدة تعد ميزاناً للسلوك:

«ومن اشتغل بالفضول حرم الورع، ومن ظن ظن السوء حرم اليقين، ومن حرم هذه الثلاثة هلك».

وكان يقول إن من علامات الصديقين: ألا يحلفوا بالله، وألا يغتابوا ولا يُغتاب عندهم، وألا يشبعوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلاً.

الفصل الرابع: خشخاشة الذهب والتعالي عن الطين

مع هذا العمق العقائدي والسلوكي، أجرى الله على يدي سهل بن عبد الله كرامات باهرة تناقلتها الركبان، لكن موقفه منها كان يمثل ذروة الترفع الإيماني عن زخرف الدنيا.

يروي تلميذه وصاحبه المقرب "عبد الرحمن" (وقيل رواها ابن درستويه وابن سالم) موقفاً عجيباً؛ إذ كان الشيخ سهل واقفاً يتوضأ بالماء لإحدى الصلوات، وبينما هو يغسل يديه، حدث أمر خرق العادات وبهر الأبصار: تحول الماء المتساقط من أطراف أصابعه بمجرد ملامسته للأرض إلى قضبان ممتدة من الذهب الخالص الأصفر البراق!

تجمد عبد الرحمن في مكانه، وشخصت عيناه نحو الذهب الذي يلمع تحت قدمي الشيخ، وامتلأ قلبه بالدهشة من هذه الآية العظيمة. التفت الشيخ سهل هادئاً، لم تهتز شعرة في بدنه، ولم ينظر إلى الذهب بنظرة إعجاب أو رغبة، بل ابتسم ابتسامة إشفاق على تلميذه المبهور، وقال له بكلمات صوفية تربوية عميقة: "الصبيان يناولون خشخاشة".

كان الشيخ يلقن تلميذه درساً بأن هذه الخوارق المادية للدنيا ليست سوى ألعاب صغيرة (كالخشخاشة التي يُلهى بها الأطفال الصغار). فالمؤمن الحقيقي لا يفرح بقلب أعيان الدنيا ذهباً، بل يفرح بقلب باطنه مخلصاً لله عز وجل. كان يقول: "الدنيا كلها جهل إلا ما كان منه العلم، والعلم كله حجة إلا ما كان العمل به، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص فيه، وأهل الإخلاص على خطر عظيم".

وفي بيئة التستري، كان الزهد في الطعام والشهوة أصلاً للثبات.

يروي أبو علي الروذباري واصفاً تلامذة تلك المدرسة: "إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه النار! غلبت شهوتهم حميتهم فلذلك افتضحوا".

وقيل لبعضهم: ألا تشتهي؟ فقال: "أشتهي أن لا أشتهي، وهذا أتم".

وكان سهل يستحضر دائماً قصة صحبه الكبار كأبي تراب النخشبي وصبره عند ضربه سبعين درة من أجل شهوة خبز وبيض تمنتها نفسه مرة واحدة في سفره.

الفصل الخامس: عاصفة المحنة ومكائد أهل الفضول

لم تترك الدنيا عابداً في حاله، وكان لا بد لسهل التستري أن يدفع ضريبة الصدع بالحق ومحاربة الأهواء. ففي وسط مجالسه الحاشدة في تُستر، أطلق الشيخ قراءته السلوكية الآتية: "التوبة فريضة على العبد مع كل نفس".

كانت هذه العبارة العميقة كافية ليتلقفها حساده وأهل الفضول بظنون السوء. بدأ بعض المحرضين يؤولون كلامه وينشرون الشائعات بين العوام غلاظ القلوب. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ادعى بعضهم بين العامة كذباً وافتراءً أن سهلاً يزعم أن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه في مجلسه ويتكلمون إليه ويخاطبونه!

هاجت العامة، ووقعت عاصفة من التكفير والإنكار ضد الشيخ في مدينته تُستر، ونسبوا إليه كل قبيحة. ووصل الأمر إلى محاولة الوثوب عليه وإيذائه جسدياً. حتى إن بعض علماء العصر مثل ابن الجوزي تحامل عليه لاحقاً وأنكر عليه بشدة بعض تفسيراته الإشارية لآيات القرآن؛ كقوله في تفسير ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾ بأنها إشارات للقلب والنفس والجوارح.

نظر سهل إلى تلامذته وسط هذه الفتنة العارمة، ورأى كيف تحرك طين البشرية حاسداً وحاقداً، وتذكر كلماته: "من اشتغل بالفضول حرم الورع، ومن ظن ظن السوء حرم اليقين".

وقرر، حقناً للدماء وامتثالاً لأصله في "كف الأذى"، أن يغادر موطنه وتاريخه وذكريات خاله. حزم أمتعته القليلة وخرج من تُستر مطروداً ومهاجراً، متوجهاً إلى مدينة البصرة ليعيش فيها غريباً عابداً.

الفصل السادس: بصرة العارفين والإرث الخالد

استقبلت البصرة الشيخ المهاجر المظلوم، وفتحت له قلوب أحيائها. وفى البصرة، أسس سهل التستري مدرسته الروحية الكبرى التي هزت أركان القرن الثالث الهجري. التف حوله شبكة من التلاميذ الكبار الذين أصبحوا قادة للفكر والحديث والزهد في الإسلام، ومن أبرزهم:

١. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم (صاحب التستري): الذي لازم الشيخ ملازمة ظله، ورافق كلامه وفسره، وأسس مع ابنه "أبي الحسن بن سالم الزاهد" المدرسة "السالمية" الشهيرة بالبصرة والتي حفظت تراث سهل بالكامل.

٢.الإمام البربهاري (شيخ الحنابلة وقودتهم): الحسن بن علي بن خلف البربهاري، القوال بالحق الذي لا يخاف في الله لومة لائم، صحب سهل التستري بالبصرة وتأدب بأدبه الشديد وصنف التصانيف النبوية السنية.

٣. الحسين بن منصور الحلاج: ذلك الشاب الثائر التائه الذي نشأ أصلاً في تُستر وصحب سهل التستري في بداياته، ونهل من رياضته قبل أن ينتقل إلى بغداد ويصحب الجنيد.

٤. أبو محمد الجريري:الذي كان من كبار أصحاب الجنيد وصحب أيضاً سهل التستري، وكان عالماً فقيهاً أُقعد في مجلس الجنيد بعد وفاته لتمام حاله.

٥.المزين (أبو الحسن البغدادي): الذي وُصف بأنه من أورع القوم وأكملهم حالاً، صحب سهلاً والجنيد وجاور بمكة.

ولأن سهل كان حريصاً على ألا يضع بين أيدي خصومه ومكفري العامة وثائق خطية يحرفونها ضده، لم يكتب مؤلفاته بيده. بل قام تلامذته الأوفياء، ولا سيما ابن سالم، بجمع أقواله وإملائه وحفظها في كتب ورسائل بلغت أربعة عشر كتاباً طارت بها الركبان في المشرق والمغرب، ومنها:

تفسير القرآن العظيم (تفسير التستري الشهير).

كتاب المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى.

جوابات أهل اليقين ودقائق المحبين.

لطائف القصص في قصص الأنبياء وكلام سهل.

وقد أثنى على عقيدته وسلوكه أئمة الإسلام الكبار؛ إذ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكلام سهل بن عبد الله في السنة وأصول الاعتقادات أسدّ وأصوب من كلام غيره.. وكلامه في الصفات والقرآن أشهر من أن يُذكر"، ومدحه الإمام ابن القيم بلقب "سيد وشيخ الطائفة".

وفي شهر المحرم من عام ثلاث وثمانين ومائتين للهجرة (٢٨٣ هـ)، وقيل غير ذلك، صعدت روح الشيخ العارف سهل بن عبد الله التستري إلى بارئها في أرض البصرة، بعد حياة حافلة بالصيام والمجاهدة والقرآن امتدت لأكثر من ثمانين سنة. مات الغلام الذي بدأ حياته بـ "الله معي" ليختمها وهو في معية الله، تاركاً خلفه أنواراً تضيء عتمة الطين البشري إلى أبد الآبدين.

المصادر والمراجع

١. سير أعلام النبلاء - الإمام الذهبي، الجزء ١٣، صفحة ٣٣٠-٣٣٣.
٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصبهاني، الجزء ١٠، صفحة ١٩٠-٢١٢.
٣. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة* - للإمام اللالكائي، الجزء ١، صفحة ١٨٢-١٨٣.
٤. طبقات الصوفية - للإمام السلمي، صفحة ١٦٦-١٧١.